المقال الرابع

خلفاء محمد علي في حكم مصر

حكم محمد علي باشا وأسرته مصر ما يقرب من قرن ونصف؛ من سنة 1805م إلى سنة 1952م أو 1953م. وكانت نهاية حكمهم لمصر في سنة 1952م عندما قامت ثورة يوليو 1952م، حين أُجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش في 26يوليو 1952 لابنه الرضيع (فؤاد الثاني). وقد استمر الطفل الرضيع –نظرياً – يحكم مصر خلال سنة واحدة (من 1952م إلى 1953م) إلى أن تم إلغاء الملكية في 18 يونية سنة 1953م، وإقرار النظام الجمهوري للبلاد.

هنا قائمة بأسماء من حكموا مصر من هذه الأسرة:

* محمد علي باشا(1805- 1849م)
* عباس باشا الأول (1849- 1854م)
* سعيد باشا (1854- 1863م)
* الخديوي إسماعيل ( 1863- 1879م)
* الخديوي توفيق( 1879- 1881م)
* الخديوي عباس حلمي الثاني ( 1881- 1914م)
* السلطان حسين كامل ( 1914- 1917م)
* الملك فؤاد الأول ( 1917- 1936م)
* الملك فاروق ( 1936- 1952م)
* الملك الرضيع فؤاد الثاني ( 1952- 1953م)

**في السطور التالية، نتكلم قليلاً عن خلفاء محمد علي في القرن التاسع عشر.... ثم نستكمل الحديث عن الباقين عندما نصل إلى القرن العشرين.**

عباس باشا الأول

(1849- 1854م)

يمكن وصف عصر عباس باشا الأول بعصر الرجعية أو النكسة. كان رجعياً، فرفض في صباه تعلم اللغات الأجنبية والتربية الأوربية، ثم اعتزل الناس وقضى معظم أيامه بين جياده وكلابه. وبسبب رغبته في اعتزال الناس، أنشأ قصراً له في صحراء العباسية ( التي سميت على اسمه).

في بداية عهده، استبعد مستشاري أبيه وجده. وقضى على جميع أعمال ومجهودات جده محمد علي، غير مميز النافع منها أو الضار- فمثلاً قضى على احتكار التجارة المجحف بحق الفلاح، وأنقص عدد الجيش وأغلق المعامل والمدارس واستدعى معظم البعثات المرسلة إلى أوربا. وفي عهده، بدأ إنشاء خط السكة الحديد بين القاهرة والأسكندرية- وذلك لتلبية احتياج الحكومة الإنجليزية إلى تسهيل نقل البريد والمسافرين بين الهند وأوربا عن طريق مصر.

عباس باشا والأقباط

بسبب كراهيته للأقباط، عزم على تقليل جهودهم في الدواوين. لذا، اختار أربعة من طلبة المدارس الأميرية وسلم كل رئيس ديوان (من الأقباط) واحداً منهم ليعلمه الأعمال الحسابية والدفاتر خلال سنة واحدة، وإلا فالقتل سوف يكون من نصيبهم. أيضاً، صمم على طرد الأقباط من البلاد إذا رفضوا الإسلام بأن ينقلهم إلى السودان أو يقوم بتدبير مذبحة لإبادتهم عن آخرهم. وكان أن وقف ضده مفتي الديار المصرية، الذي وبخه قائلاً: "إن دين الإسلام يأبى عليك هذه الفعلة الشعناء، فالأقباط هم أهل ذمة ويجب احترامهم وتوفير الأمان لهم".

سعيد باشا

(1854- 1863م)

هو أصغر أبناء محمد علي. تعلّم في فرنسا، فكان من أكبر أنصار وجود الأجانب بمصر بعكس سابقه عباس باشا الذي كان يكره كل ما هو منسوب إلى أوربا. وقد كان محباً للمرح والفكاهة، ويعيش حياة الترف والبذخ.... وكان يهتم بالطعام والشراب كثيراً.

اليه تنسب إصلاحات كثيرة، وفي نفس الوقت الاستدانة من الخارج التي فتحت باباً واسعاً للأجانب في أن يتحكموا في مقدرات البلاد. من الاصلاحات التي تمت في عهده: إلغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية التي كانت في عصر محمد علي، وإلغاء تجارة العبيد (1856م)، وإلغاء عقوبة الجلد (1863م)، والخدمة الإجبارية العسكرية جعلها سنة واحدة فقط على الجميع. أيضاً، اهتم بالاصلاحات العمرانية مثل تطهير ترعة المحمودية، واستكمال خطي السكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية وبين القاهرة والسويس. أما موضوع استدانته من الخارج، فقد عقد أول قرض عام- قبل موته بسنة واحدة- في لندن (خاص بتمويل حفر قناة السويس) يبلغ أكثر من ثلاثة ملايين جنيهاً.

سعيد باشا والأقباط

منذ الغزو العربي لمصر في القرن السابع الميلادي، لم يكن مسموحاً للأقباط بالتجنيد في الجيش المصري. ولكن عندما جاء سعيد باشا للحكم، أصدر أمراً بتجنيد كل المصريين بدون تمييز بسبب الدين. وللأسف، استخدم المسلمون ذلك الأمر لإضطهاد المسيحيين – على سبيل المثال، تم تجنيد كل الذكور في أسيوط في أغلب البيوت القبطية، ولم يتركوا ولا واحد منهم لإعالة النساء والأطفال. أيضاً، كان المسلمون بالجيش يضغطوا على الجنود الأقباط لإجبارهم على اعتناق الإسلام. وبسبب ذلك، اشتكى البابا كيرلس الرابع (1854-1861م) إلى بعض الرجال الإنجليز الذي كان سعيد باشا يخشى بأسهم. وقد كانت النتيجة أن أعفى سعيد الأقباط من الخدمة العسكرية، إلا أنه أمر بقتل البابا بالسم، كما تم طرد المئات من الأقباط من الحكومة.

ومع هذا، يُذكر لسعيد باشا إلغاءه الجزية (1855م) التي فُرضت على الأقباط منذ الغزو العربي لمصر في القرن السابع الميلادي. أيضاً، ألغى الأفراح التي كانت تقام في حالة اعتناق قبطي الديانة الإسلامية.

الخديوي إسماعيل

(1863- 1879م)

إسماعيل باشا هو ابن إبراهيم بن محمد علي الكبير، وكان مثقفاً بالعلوم ومتسامحاً من ناحية الدين. لذا، قطع الأقباط- في عهده- خطوات كبرى في مسيرة المشاركة الوطنية، حيث نالوا الكثير من حقوق المواطنة. كان يتعامل مع الأقباط مثلما يتعامل مع المسلمين، فقد رآهما شعباً واحداً ونسيجاً واحداً.

في بداية حكمه، رأى أن امتيازات شركة قناة السويس (بدأ حفر قناة السويس في سنة 1859م) مجحفة يحق مصر والمصريين، فشرع في إلغاء بعض هذه الامتيازات. ولكي لا يغضب فرنسا، دفع مبالغ نقدية للشركة الفرنسية على سبيل التعويض، نظير السخرة للفلاحين المصريين واستبدالهم بعمال مهرة نظير أجر. كما سحب بعض الأراضي على ضفتي القناة من الشركة. بعد ذلك، أقبل على المشروع يعضده بكل قوته، وتم افتتاح مشروع قناة السويس- بشكل أسطوري- في نوفمبر 1869م.

وقد قام بالكثير من الإصلاحات والأعمال الهامة، ويعتبر هو المتمم لإعمال جده محمد علي الكبير. وقد أورد كاتب كتاب "تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قُبيل الوقت الحاضر" تسعة أهم أعمال قام بها إسماعيل باشا، نوردها بإيجاز شديد في السطور التالية:

1. وراثة 1. وراثة العرش

سعى إسماعيل باشا لدى الباب العالي (السلطان العثماني) عدة مرات، حتى يأخذ عهداً يجعل الوراثة في أكبر أولاده. وقد حصل على ذلك في سنة 1866م، وذلك مقابل زيادة الجزية التي تدفعها مصر إلى الضعف تقريباً. أيضاً، سعى لدى الباب العالي ليحصل على لقب أعلى من الباشا، فمنحه السلطان العثماني لقب "خديوي" في سنة 1867م- ويقال إنه لقب فارسي معناه الأمير العظيم.

1. الاستقلال الداخلي والإدارة

أراد استقلالاً إداريا يمكنه من إنجاز كل مشروعاته دون أن يعترض على ذلك الباب العالي. لذا، بذل الجهد الكثير والمال الوفير لأجل هذا الغرض، حتى منحه الباب العالي استقلالاً داخلياً سنة 1873م.

1. الاصلاحات القضائية

أراد إصلاح القضاء بأن يؤسس المحاكم المختلطة التي فيها يتساوى الجميع؛ الأجنبي والوطني، وكان يهدف في ذلك إلى القضاء على المحاكم القنصلية والأمتيازات الأجنبية. ولكن للأسف خاب ظنه، فهذه المحاكم المختلطة أصبحت تفصل في كل القضايا حتى القضايا الحكومية وكذلك القضايا الخاصة به- وقد كانت من أكبر العوامل على عزله.

1. **التربية والتعليم**

نشأ الخديوي إسماعيل على مبادئ حب العلم والتعليم، وذلك بسبب نشأته الأوربية. وقد ساعده الحظ- في هذا المجال- بسبب النخبة من أكابر الغربيين الذين نهضوا بالتعليم بكل قوة ورقي. وهكذا في فترة وجيزة، زاد عدد التلاميذ إلى000,52 تلميذ يتعلمون في 1301معهد، ثم إلى 977 ,140تلميذ وعدد المدارس 4817. وقد اهتم بالمدارس العالية والخصوصية مثل مدرسة الهندسة ومدرسة الطب والولادة، كما اهتم بتعليم البنات.

واليه يرجع الفضل في إنشاء "دار الكتب"، إذ جمع لها كل ما وصلت اليه يده من الكتب المنسوخة والمصاحف المزخرفة...الخ. كما اهتم بمشروع مريت باشا الخاص بحفظ الآثار المصرية.

1. **منع تجارة الرقيق**

لم يكتف إسماعيل باشا بمنع هذه التجارة على الورق كما فعل محمد علي باشا وسعيد باشا، بل عزم عزماً أكيداً على اقتلاعها من أصولها. وقد صادفته صعوبات كبيرة بسبب أن الدين الإسلامي لا يمنع هذه التجارة بشروط خاصة، حيث أوعز شيخ الجامع الأزهر إلى الخديوي أن تحريم الرقيق جملة مخالف للشرع. ولكنه بذل جهوداً جبارة بالاشتراك مع الأوربيين لمنع هذه التجارة الشنيعة، حتى قال عنه أحد الإنجليز:" إنه لا يتسنى لأي حاكم شرقي أو أوربي أن يعمل على محو الرقيق وتحسين حالة رعيته في زمن قصير كما فعل حاكم مصر الحالي" ، ويعني به الخديوي إسماعيل.

1. **مجلس النظار ومجلس شورى النواب**

محمد علي باشا هو أول من رأى ضرورة اشراك الرعية معه في تدبير شئون البلاد، فألف من كبار حكومته "المجلس المخصوص" ثم "مجلس المشاورة الملكي". وبوفاة محمد علي، انتهى عمل هذين المجلسين- ولكن تم احيائهما في عهد الخديوي إسماعيل.

وقد أرسل الخديوي إلى المجلس المخصوص (مجلس النظام) جميع المشروعات التي يريد ادخالها، وكان- في الغالب- يرأس المجلس بنفسه وبقى هو صاحب السلطة المطلقة لايعمل نظاره إلا برأيه! أيضاً، أعاد إسماعيل باشا مجلس الشورى وسماه " مجلس شورى النواب" سنة 1866م، وكان أعضائه يُنتجون من جميع أنحاء البلاد. وبعتبر هذا المجلس أساس الحكم النيابي في جميع ممالك المشرق. وربما كان غرض الخديوي إسماعيل من إنشائه، لا أن يتدخل المجلس معه في أمور البلاد بل ليشاركه أعضاؤه في المؤاخذة.

1. **التقدم الزراعي والتجاري والأعمال العامة**

في مجال الزراعة، حفر أكثر من 200 ترعة، ورصف مسافات طويلة من شواطئ النيل، والآف الأميال من الطرق الزراعية أقام عليها 500 قنطرة. كما اهتم بتصدير كميات كبيرة من القطن. أيضاً، اهتم بزراعة السكر وأنشأ من أجله خطاً حديدياً من القاهرة إلى أسيوط. كما أحضر الآلات من الخارج لتشييد العديد من معامل السكر.

وفي مجال التجارة، بنى، الخديوي أسطولاً تجارياً. كما أصلح ميناءي الأسكندرية والسويس. كذلك، بنى خمس عشرة منارة في البحرين الأبيض والأحمر، لإرشاد السفن التجارية القادمة إلى مصر.

أما الأعمال العامة فهي كثيرة. أتفق الكثير من المال على خطوط السكك الحديدية في طول البلاد وعرضها، وكذلك خطوطاً تخترق أواسط أفريقيا. أيضاً، أنشأ خطوط الأسلاك البرقية لمسافات طويلة، كما أشترى مصلحة البريد من أحد الغربيين وأسس الكثير من مكاتب البريد في المحافظات المختلفة. كذلك، أنار المدن الرئيسية في البلاد، ومد بها أنابيب المياة، كما أنشأ الشوارع الفسيحة بالقاهرة والأسكندرية والسويس....الخ.

1. **الحروب التوسيعية لإسماعيل باشا**

اهتم الخديوي إسماعيل بالجيش، واحضر له كبار الضباط من أوربا لتدريبه. وكان يهدف إلى التوغل في أفريقيا وضم كل ما يمكن كشفه أو فتحه من أراضيها إلى مصر. وهكذا ضم السودان إلى مصر، وكذلك مملكة دارفور المستقلة... كما دخل في حرب فاشلة مع الحبشة.

1. **إتمام قناة السويس**

بدأ حفر قناة السويس قبل أن يحكم مصر الخديوي إسماعيل، وكاد أن يتوقف هذا المشروع لولا جهوده. وعندما قارب مشروع القناة على الانتهاء، بدأ الاستعداد لإقامة حفل الافتتاح بالإسماعيلية. وأراد الخديوي أن يجعل الإفتتاح في غاية العظمة والفخامة والإبداع- منفقاً عليه بلا حساب.

وقد دعا الخديوي ملوك أوربا وعظماءها وعلماءها، فأجاب الدعوة " الامبراطورة يوجيني" زوجة إمبراطور فرنسا، وامبراطور النمسا، وولي عهد ألمانيا. ولهذا الغرض شيد الخديوي قصراً بديعاً على شواطئ بحيرة التمساح، لتقام فيه حفلة راقصة احتفاءً بالإمبراطورة يوجيني؛ النائبة فيه عن فرنسا صاحبة المشروع. كما أنشأ على وجه السرعة طريقاً إلى الأهرامات يصلح لسير العربات- ذلك بسبب رغبة إمبراطورة فرنسا في مشاهدة الأهرامات. كذلك، أنشأ أوبرا القاهرة وغيرها.

كان الكرم عظيماً لكل ضيوف مصر، حتى قيل أن الكثير من الزائرين بقوا شهرين بالبلاد، دون أن ينفق أي زائر مليماً واحداً!!!

**خاتمة**

تمت مشروعات كثيرة في عهد الخديوي إسماعيل، وهذا جعله يقترض الكثير من دول أوربا وخاصة إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وكانت النتيجة أن تدخلت هذه الدول في شئون إسماعيل المالية عن طريق مراقبين ماليين لميزانية الدولة. ورفعت المانيا دعواها للمحاكم الأهلية المصرية الحديثة للمطالبة بديونها، فأنكر إسماعيل باشا هذه الأحكام ورفض سداد ديونه لألمانيا. وكان أن وصلت شكوى من ألمانيا للسلطان العثماني، الذي طلب منه الإستقالة. وقد كان ، وولى مكانه إبنه "توفيق باشا" سنة 1879م. بعدها، غادر إلى إيطاليا على ظهر السفينة "المحروسة".

الخديوي توفيق

(1879- 1881م)

تولى توفيق باشا حكم مصر، والمصاعب تحيط البلاد من كل جانب؛ الخزانة خاوية والجيش ثائر والشعب ساخط والأوربيون ناقمون. وقد حاول الخديوي أن يسير في خطة إصلاحية، ولكن يبدو أن الأمور قد أفلتت من بين يديه. في الجيش، كان الترقي من نصيب الضباط الأتراك على حساب الضباط المصريين – وقد أدى ذلك إلى التذمر بين الضباط والجنود المصريين الذين حقدوا على الحكومة والخديوي. ونتيجة ذلك حوادث كثيرة، أدت إلى ما يُعرف باسم الثورة العرابية (نسبة إلى أحمد عرابي).ورغم أن أحمد عرابي لم يكن هو المحرك الأول للثورة، إلا أن دراسته بالأزهر اكسبه مقدرة على الخطابة لم تكن عند غيره من الضباط.

وتوالت الأحداث...

وتدخل السلطان العثماني وإنجلترا وفرنسا... وحاول عرابي وصحبه من جانب، والخديوي من جانب آخر إظهار الولاء للسلطان العثماني أمير المؤمنين.

ويبدو أن الأقباط، قد نظروا إلى الأمر على أنه صراع بين جهتين ولا يعنيهم في شئ.

ووقعت البلاد في الفوضى...

وبدأ الاعتداء على المسيحيين والأجانب.....

وكان أن تدخل الإنجليز (ومعهم الفرنسيين) وضربوا الإسكندرية في يوليو 1882م..

وامتلآت الشوارع بالهائجين، الذين صاحوا قائلين:

"نذبح النصارى... نذبح النصارى"- وبداءوا ينهبون كل شئ، ويطلقون النيران، ويشعلون النار بالمدينة.

ويقول البعض أن الجنود المصريين، كانوا يساعدون الغوغاء في المذابح......

والنتيجة، نزول الإنجليز إلى الأسكندرية لحماية السكان والأجانب...

ثم احتلال الأسطول الأنجليزي لقناة السويس، وهزيمتهم لأحمد عرابي في (التل الكبير) في 13 سبتمبر 1882م، ثم سار الأنجليز إلى القاهرة واحتلوها في 15 سبتمبر 1882. وتم القبض على جميع زعماء الثورة.

إلى هنا نكتفي بهذه الأحداث.... في القرن العشرين نكمل الحديث عن خلفاء محمد علي، مبتدئين بالإحتلال الإنجليزي لمصر.

**المراجع:**

1. تاريخ مصر(5) تأليف المستر جورج يانج- مكتبة مدبولي.
2. تاريخ مصر (6) لعمر الاسكندري وسليم حسن- مكتبة مدبولي.
3. الخديوي إسماعيل ومعشوقته مصر لحسين كفافي- الهيئة المصرية العامة للكتاب
4. وطنية الكنيسة القبطية للراهب القمص أنطونيوس الأنطوني- مكتبة المحبة.
5. وطنية الكنيسة القبطية(1) للراهب القمص أنطونيوس الأنطوني- مكتبة المحبة.
6. تاريخ الكنيسة المصرية للكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر- مكتبة المحبة.
7. الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي(2) إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا)– مؤسسة اقرأ.